البارون تلم

أحمد

متولى

بقلم : محمود تيمور

البارونة أم أحمد

هى لا تدرى على وجه التحديد : متى بدأ الناس يدعونها ، « أم أحمد »؟

لقد وجدت نفسها ، وما برحت صبية ـ تحمل هذا اللقب الذى لايطلق الا على كل من كان لها ولد

أما تلقيبها بـ «البارونة» فذلك هو الحادث الجلل فى تاريخ حياتها المديد.

نشأت يتيمة ، لا اب ولا أم ، فكفلها خال علت به السن ، يعمل ملقنا فى « المسرح الكبير » الذى عاصر التمثيل العربى فى بواكيره .

ولم يكن للخال مأوى غير هذا المسرح، ينتبذ منه حجرة خشبية صغيرة ، أو بالأحرى حطام حجرة . وكانت الصبية مقيمة معه ، يتعاونان على النهوض بأعباء العيش .

ونظرة الى هذه الحجرة التى يتخذها الرجل مبيتا له ، تريك أنها ليست الا خنا آخر شبيها بذلك الخن البارز على منصة المسرح ، حيث يقضى الرجل الساعات الطوال لأداء مهمة التلقين .

وقضت الصبية «أم أحمد» مرحلة الحداثة فى جو المسرح ، جو العجائب والخوارق والتهاويل،تشهد التمثيليات، من فرجة هنا وفرجة هناك ، وراء المناظر والاستار ، فكأنما يتجلى لها عالم سحرى من عوالم الرؤى والاساطير .

ولطالما ملكها النوم ، وهى قابعة فى احدى الزوايا والاركان ، لا توقظها الا اقدام الرائحين والغادين من زملة التمثيل ، ترتطم بها على غير عمد .

وتعاقبت شهور وأعوام .

ويوما الفت الصبية نفسها وحيدة، لا « خال » لها على مسرح حياتها . لقد اختفى عنها كما تختفى الشخوص فى تمثيلية تم عرضها ، ولا أمل فى أن تعود .

وفوجئت «أم احمد» بأن خن الملقن فى صدر المسرح يستقبل رجلا غير خالها المفقود ، فجعلت ترنو اليه مليا فى صمت حزين .

اما الخن الآخر ، حطام الحجرة ، فلم يأبه له أحد ، فعاشت فيه الصبية على هامش الضجة التى تحيط بها ، لا ناصر لها ولا كفيل .

وكانت تتصيد رزقها من خدمات تؤديها لزيارة المسرح فاذا بدأ التمثيل استكن فى الدخائل والزوايا ترقب المشاهد ، وقد استهواها ما فيها من طرافة وبريق .

وحين يخلو المسرح من اهليه ورواده، وتسوده وحشة وظلمة، تنشط الصبية « أم احمد » وتخطو على المنصة ، لا ينير طريقها الا تلك الومضات التى تتسرب الى الداخل من مصابيح الطريق.

ويحلو للصبية أن تعيد على المنصة تمثيل مشاهد مما رأت، وملء جوانحها اعجاب وتيه .

وازداد بها الشغف ، فحرصت على ان تلتقط ما تسمع من الحوار المسرحى،

حتى لقد استطاعت ان تستظهر الكثير من مواقف البطلات .

وعلى مر الايام استأثر التمثيل باهتمامها كله ، ولكن ذلك ظل بينها وبين نفسها سرا حبيسا .

وباغتها ذات ليلة فنان من شيوخ التمثيل ، وهى على المنصة تعيد تأدية موقف بطولة لاحدى الممثلات النابهات، فراعه ما تبديه الصبية من حيوية وما لبث أولاها عطفه ، وشملها برعايته .

وبدات « أم احمد » مرحلة جديدة من حياتها فى كنف ذلك الفنان الشيخ، وكانت يومئذ تستقبل نضارة الصبا ، ومخايل الشباب .

وامام استاذها وراعيها ، وقفت مرة تمارس التجارب الفنية لدور «البارونة» فى مسرحية « فرسان الليل» ، فمرنت عليه مستهدية بما لشيخها من توجيه وتبصير .

وفى احدى الاماسى قذف بها الممثل الشيخ على منصة المسرح ، وسط الاضواء الوهاجة ، فسطع لها نور مفاجىء ، تضاءلت بجانبه انواراخرى، والتمع لها بريق خاطف بهر العيون . وما أسرع ان هبت فى ارجاء القاعة عاصفة من تهلل وتصايح وتصفيق.

فى تلك الليلة احست طفلة الامس ، وفتاة اليوم ، بميلاد لها جديد ، ميلاد البارونة « أم احمد » !

ولم يلبث هذا اللقب ان شاع : الالسن تتناقله ، والصحف تتحدث به، مقرونا دائما بهالة من الحفاوة والتمجيد .

وتصاعدت بها الخطا فى طريق الشهرة الجبار ، ودارت بها دوامة الحياة دوراتها العاتية .

وتغير كل شىء فيها ، وفيما حولها، حتى انها بدات تنكر نفسها ، أوبالاحرى تنكر تلك الصبية الصغيرة التى كانت تقبع كومة منسية عالقة بدخائل المسرح وزواياه ، لترقب التمثيل فى دهشة المسحور .

وامتدت بها الايام ، وهى كالصاروخ يشق أجواز الفضاء .

واحست ذات يوم أن الصاروخ قد اختل توازنه .

واذا هو يحيد عن طريقه .

واذا هو يهوى .

... وفى معزل اشبه بالمنفى ، يعشش فيه الخمول ، تراءت البارونة « أم احمد » وحدها لا انيس لها الا ذكريات غالية تسنح اطيافها كانما هى رؤيا منام .

ويا لها من ذكريات .

ذكريات ماض حافل بالمغامرات العارمة ، فى دنيا الهوى والشباب ،

هذه هى الحالات الثلاث التى تظل فى افق المجد والجاه ، فى اتون المنافسات والاحقاد .

ذكريات مختلطة متدامجة ، لا تكاد معالمها تبين فى وضوح .

ومن بين هذه الذكريات ، تتجلى لناظرها ذكرى خالدة .

انها ذكرى حبها المضطرم لفتاها البطل ، فى مسرحية « فرسان الليل».

كان هو « فارسها » فى المسرحية ، وكذلك اصبح هو « فارسها » فى واقع الحياة .

انه حبها الاول ،

وانه هو حبها الاخير .

كم ضحت فى سبيله بعشاق من وجوه القوم ، بذلوا تحت قدميهـــا القلوب والثروات .

لقد لبثت وفية لحبيبهـا المختار ، على الرغم مما كابدت من صد وهجران.

وتوارى هذا الفارس عن عينيهـا ، لا تعرف اية موجة طوته ، فلم يعد الى لقائه من سبيل .

... ...

... كانت « ام احمد » تعرض ذلك الشريط الخاطف من صور حيـاتها ، وهى جالسة على متكئهـا المريح ، عن كثب من النـافذة ، ترمى ببصرها فى الفضاء ، وقد تخايلت على وجهها ذى الغضون اشراقة اهتياج .

وبغتة نهضت تتأهب للأمر العظيم.

لقـد زارها ، منـذ قليـل ، رئيس «نقابة الفنانين» ينهى اليها أن «النقابة» اعتزمت احيـاء حفـل تكـريم لها فى « المسرح الكبير » ، تقديرا لما اسدته الى الفن فى ايامها الخوالى من جميل.

وكان من برنامج هذا التكريم أن تعرض « النقابة » مسرحية « فرسان الليل » ، على أن تضطلع « ام احمد » فيها بدور «البارونة» ، دورها الاصيل الذى شيدت عليه مجدها العريض .

اما موعد هذا الحفل ، فقد اختارت له النقـابة اليوم الموافق لليـوم الذى اعتلت فيه « ام احمد » منصة المسرح، لأداء ذلك الدور أول مرة .

نهضت « ام احمد » بغتة تحـاول ان تجمع شتات افكارها ... من اين تبدأ ؟ لا تدرى ! بيد أن امرا واحـدا استولى على ذهنها : انها سترتقى منصة المسرح ، وان الاضواء ستسلط عليها من جديد ... وما تبـالى وراء ذلك شيئا .

حسـبها من الامر انهـا سـتلتقى بجمهور المعجبين بها ، وستحظى منهم لا ريب بالاعجاب والاحتفاء .

وخطت فى حجرات الدار ، وكانهـا « بارونة فرسان الليل » تتهادى على منصـة المسرح ، رشـيقة الحـركة ، متفتحة القلب ، كريشة تميل بها نسمات رقاق .

ووجدت نفسها ماثلة امام صـوان الثياب .

عليها أن تستخرج ثوب «البارونة»، وتميط عنه غبار الزمان ، لتعيد اليه شـبابه ، حتى يكون ملائمـا لهـا فى شبابها الجديد .

ولم تكد تمد يدها داخل الصوان ، حتى انصرفت عنـه فى غـير وعى الى صندوق القبعات ، باحثة عن تلك الجمة الذهبية اللون من الشعر المسـتعار ، شعر « البارونة » فى مسرحية «فرسان الليل » . وبينما هى تتفحص محتويات الصندوق احست حافزا يدفعها نحـو خزانة النصـوص ، لتفتش عن الدفتر الذى احتوى دورها فى تلك المسرحية،

فما اشـوقها الى ان تقرأ منه الساعة بعض فقرات .

وما هى الا ان تراجعت خطوات ، وقد انسرح بها الخاطر .

وما هى الا ان توسطت الحجـرة ، وقد علت بقامتها ، ورفت على محياها شاعرية الاقة . واذا هى تتلو مناجاة غرامية لفارسها المحبوب :

« رميت قلبى بسـهام لحظك ، فاصبت منه مقتـلا ، ثم اختفيت عن ناظرى ، فلم اعثر لك على اثر .

ترى اين انت يا «فارسى» الجميل؟ اليس من امل فى ان تكتحل عينـاى بمرآك ، فتبرد نار شوقى بلقياك ؟

تعال الى تعال ...

فما من حبيب لى سواك !

ومدت ذراعيهـا ، مطبقة الجفنين ، تغشاها غيبوبة حالمة .

واذا يدان تلامسان يديها !

واذا صوت هيمان حنون يقول :

« هانذا اعود اليك يا حبيبتى ...

هانذا ارجع بعد طول مغيب !

ورفعت « ام احمـد » جفنيهـا ، امامها « فارسها » القديم ... فتى احلامها فى مسرحية «فرسان الليل».

ورنت اليه مبهورة الانفاس ، وقـد جاشت فى صدرها اشتات المشـاعر .

فى منزلها تحلم هى ، ام على منصة المسرح تمثل ؟

ولم تطـل دهشتها ، فقـد صكت سمعها ضجة بالباب ، وسرعان ماتراءى جمع من الفنـانين ، رجال ونسـاء ، يقتحمـون الحجـرة ، فى زيطة عارمة ويرددون :

« فلتحى البارونة

وليحيى فارس الليل ! »

ووقفت « البارونة » وسـط ذلك

الجمع ، وعن يمينها فتاها الاول ، تحيى فوج الزوار ، وكان بعضهم من رفاقها الذين اشتركوا فى حفلتها الاولى، باكورة ظهورها على المسرح فى عهدها السالف .

هاهم أولاء قد تسامعوا بنبأ تكريمها، فاقبلوا يحتفون بها ، ويعدون العدة للاشتراك معها فى تمثيل المسرحية المجيدة .

وياله من لقاء حار طريف ، توهجت فيه العواطف والاحاسيس ، وثارت لطائف الذكريات والأفاكيه .

انه لقاء وصل بين الماضى والحاضر، وامتزج فيه الخيال والواقع ، وتشابكت فيه أمانى شتى : أمانى شباب مضى واندثر ، وأمانى شيخوخة ما برح فيها رمق الحياة .

وبرز الملقن ، والرواية بين يديه ، وانتظم الجمع حياله صفا ، كأنهم جنود امام قائدهم يتلقون منه الأوامر .

وبدأت على الفور تجربة « فرسان الليل » استعدادا للحفل العظيم .

... ...

وحل اليوم الموعود .

واقبلت طلائع العشية .

وبرزت « أم أحمد » بباب الدار ، فرأت مركبة خيل تنتظرها ، كما كان شأنها فى العهد القديم !

وطرحت على كتفيها شملتها الحريرية ، ذات اللون السماوى ، على نحو ما كانت تفعل من قبل .

وانطلقت بها المركبة ، تسلك سبيلها الى « المسرح الكبير » .

وكان يخيل الى « أم أحمد » وهى تخترق الطريق ، أن الانظار كلما تتعلق بها . وصافحت سمعها هواتف تردد فى اكبار واعجاب :

« البارونة أم أحمد » ... البارونة ام احمد ذاهبة الى التمثيل !

وعن كثب من الباب الخلفى للمسرح، تراءى البواب يحييها فى هيجة ترحيب.

وعجل اليها يساندها فى النزول عن المركبة .

ثم تقدمها يفسح لها الطريق ، كدابه فى الايام الخوالى .

ودخلت « البارونة » المسرح ، وتلفتت حواليها تتوسم ، منتشية بذلك العبق الذى يسطع من الاستار والمناظر وكل ما حوت القاعة .

انه مسرحها عينه ، مسرحها المعمور، ذلك الذى تجاوبت أرجاؤه بصوتها مبتهجة تجلجل ، او باكية تنوح .

وانساقت بها خطاها الى حجرتها ..

ها هى ذى المرآة تعلو خوان الزينة، وها هى ذى أدوات التجميل مبسوطة أمامها تتطلع اليها فى اشتياق .

ووقعت عينها على المشجب يحمل جملة « البارونة » فى مسرحية « فرسان الليل » فأقبلت عليها تعتنقها فى هيام.

وجاء الماشط اليها يحييها فى ثرثرة مرحة ، ونشط فى اداء مهمته ، يحيل « أم أحمد » ذات الاعوام الستين الى « البارونة » ذات الاعوام العشرين .

ووقفت « البارونة » وسط الحجرة، مزهوة بحلتها الفاخرة ، وبشعرها الذهبى المتوهج ، ووجهها تتألق فيه عاطفة جياشة .

وارتفعت الستارة .

وهلت « البارونة » على المنصة فى عاصفة من التصفيق ، وطاقات الازهار تستقبلها من كل جانب .

وشرعت تمثل ، وقد سرت فيها حيوية عجيبة ، وكلما مضت فى التمثيل ازدادت احساسا بأنها تغنى فى دورها، حتى انها لم تعد تشعر الا بشخصية البارونة قد تقمصتها واستحوذت على اعماق روحها .

انها بحق تلك « البارونة » الفاتنة ... تحيا حياتها الصاخبة ، حياةالحب والمغامرة ، حياة الامل واليأس ، حياة التواصل الحلو والهجران المرير .

وحل المشهد الاخير .

فراحت « البارونة » تناجى حبيبها الغائب ، وصوتها ينم عن شجو وتدله: « رميت قلبى بسهم لحظك ، فأصبت منه مقتلا ، ثم اختفيت عن ناظرى ، فلم اعثر لك على اثر .

ترى اين انت يا « فارسى » الجميل؟

اليس من امل فى ان تكتحل عيناى بمرآك ، فتبرد نار شوقى بلقياك ؟

تعال الى تعال ...

فما من حبيب لى سواك »

ومدت ذراعيها ، مطبقة الجفنين ، تغشاها غيبوبة حالمة .

واذا يدان تلامسان يديها .

واذا صوت هيمان حنون ، يقول :

« هانذا اعود اليك يا حبيبتى .

هانذا ارجع بعد طول مغيب » .

وما لبث أن احتواها فى حضنه ، فتشبثت به ، واراحت راسها على صدره .

وانطلقت انغام القيثارة ، تشدو بالحان الحب العذاب .

ومضى العاشقان ينقلان خطاهما على ايقاع النغم ، وهما فى نشوة الاحلام .

لقد عاد الى « البارونة » فارسها بعد طول شتات .

لن يكون بينهما بعد اليوم فراق ...

سيظلان هكذا متعانقين لا يفصل بينهما شىء .

سيظلان ينقلان الخطا متمايلين على ايقاع النغم ، دون انقطاع ...

لقد تحققت لهما امنية العمر... !

واحست « البارونة » أن اوصالها يسرى فيها خدر لذيذ .

وتراخت ذراعاها ...

وملكها سبات عميق ، سبات شامل

وهبت اصوات المتهللين تشيع المشهد الاخير ، المثير !

وانسدلت الستارة وئيدا ، وئيدا.. موصول ... !